متفرقات حول خطاب



الهوية البربرية

بقلم أ. حسين بوبيدي

متفرقات حول خطاب

الهوية البربرية

بقلم الأستاذ: حسين بوبيدي

تنسيق وتصفيف قناة المؤرخ الجزائري

جمادى الآخرة 1442/ جانفي 2021

www.youtube.com / the Algerian historian

متفرقات حول خطاب الهوية البربرية

بقلم حسين بوبيدي

10 جمادى الآخرة 1442/ 23-01-2021

https://www.facebook.com/hocine.boubidi.7

بعيدا عن المناكفات الفايسبوكية، أكتب هذا المقال في نقاط مركزة لإيضاح بعض المسائل تبرز الرد الذي يتبناه من يعتبر نفسه ينتمي إلى الهوية العربية الإسلامية دون تنكر لجذوره المحلية على من يناضل لأجل تكريس الهوية البربرية أو "الأمازيغية" باعتبارها هوية البلد وليس مكونا ضمن مكونات أخرى، وقد لا تكون النقاط مترابطة لكنها تستهدف مجمل الأفكار الرائجة داخل هذا التيار، وليس بالضرورة أن يكون كل مدافع عن الهوية البربرية متبنيا لكل النقاط الواردة، ولكنها بمجملها رد على تصورات شائعة عند من يتمسكون بالتصور الأحادي للهوية والقائم على العمق البربري واللحظة النوميدية كلحظة مؤسسة يتم تقديمها منطلقا لهوية الجزائريين اليوم، ويبقى النص يحمل طابع النصوص المباشرة ضمن نقاشات هذا الفضاء الأزرق، خاصة أنني كتبت تصوري بطريقة واضحة في مقالي المنشور ضمن كتاب: إشكالية الهوية: دراسة في التشكل والتمثل والتفاعل الصادر عن دار الاحسان بباتنة سنة: 2019 وهو المقال الذي عنونته بـــ: "**الهوية الحضارية: منطلقات التشكل وتفاعلات التحول: دراسة فلسفية تاريخية**".

أولا: يبدو أن عملية التوصيف للمشكلة الهوياتية عند أصحاب خطاب الهوية البربرية ارتبطت بمفهوم محدد ومختزل للهوية؛ وهو البحث عن هوية مفردة يمكن من خلالها تمييز القطر عن غيره جغرافيا ثم ثقافيا، ولذلك كانت الكتابات المنطلقة من هذا الفهم منحازة ضد الخطاب العربي والإسلامي و لم تكن محايدة راصدة، وهذا ما يتبين من الكتابات التي تقدم المتمسكين بالهوية الدينية كأحد تمظهرات التفكيك الداخلي المؤدي إلى حالة من التشظي، بينما يلاحظ أن هذا الانعزال والشعور بالتميز والتفرد والإحساس بغياب القواسم المشتركة هو ما يعبر عنه التيار البربري؛ الذي يعيش وهم الأصيل والدخيل، و لم يتمكن من تحرير مقولاته من الطرح الاستعماري الذي كرّس عبر الكتابة التاريخية الوظيفية ثنائية الشعبين في الجزائر: البربري والعربي، وأعطى خصوصية لكل شعب منهما، وهذه الأطروحة تعمل جاهدة على تحميل الاستعمار مسؤولية إلغاء الانتماء الوطني لصالح انتماءات دنيا من بينها الانتماء الديني، وكأنها تدعي أن التيه الهوياتي نتيجة ممارسات استعمارية، بينما الحقيقة أن هذا الخطاب ذاته هو استمرارية لسياسة فرق تسد الفرنسية.

ثانيا: من خلال الانتباه إلى قانون كريميو (24 أكتوبر 1870) وتجنيس العنصر اليهودي ندرك من البداية وعي الاستعمار بالبعد الديني في التشكل الهوياتي، ومن خلال قوانين التضييق على التعليم الإسلامي ومحاولة مصادرة هذا التعليم عبر تحويله لعملية تتم تحت رقابة ضباط المكاتب العربية يظهر أن الاستعمار مدرك أن عملية الاخضاع لن

تتم إلا بضرب البعد الديني للقضاء على الجزائري المقاوم للمشروع الاستعماري، بينما الانتماء الجغرافي وحده دون خلفية ثقافية قد يكون مشروعا إدماجيا يعارض الاستعمار لكنه قابل لتبني كل قيمه ومرجعياته الثقافية.

ثالثا: النزول بالتشكل الهوياتي إلى المرحلة النوميدية هو بمثابة البحث عن لحظة مؤسسة للهوية من خلال دمج الجغرافيا بالثقافة، وهذه فكرة تعد جوهر المشكلة اليوم، أي البحث عن هوية بديلة عبر أسطرة الخطاب التاريخي، وتبني نظرة الهوية الواحدة المتشكلة في سياق محدد، والعمل على إعادة بعثها باعتبار ما جاء بعدها مجرد لواحق قد تتضامن معها وقد تصبح مهددا لها، مما يبرر العمل على طمسها ومحاربتها، وهو ذات الخط الذي جعل بعض تيارات البربريست تعتبر الإسلام والعربية خطرا على الهوية "الأصلية"، والملاحظ أن هذه النتيجة الخطيرة تقدم في بعض الكتابات بطريقة تقريرية، باعتبارها مسلّمة دون أي نقاش أو تدليل أو فحص عميق رغم آثارها الخطيرة جدا على طريقة تناول الموضوع، ولا أظن أحدا يخفى عليه أن ما قد يعتبر نوميديا إنما هو امتداد لفترات أقدم في تاريخ البربر الشمال إفريقيين، فاللغة والعادات والتقاليد والدين النوميدي ليس سوى استمرارية لتاريخ أقدم لا تزال فصوله غير مكتملة الحلقات بسبب عدم كتابة البربر لتاريخهم، لذلك يعتبر البناء على هذه الفترة مجرد لحظة أسطورية يحاول بعضهم الانطلاق منها مع عدم وجود أي استثنائية فيها، وإذا تحدثنا عن الجغرافيا فليست نوميديا هي الجزائر؛ والتي يعلم الجميع أنها تشكلت بحدودها المعاصرة بنضالات أبنائها ضد الاسبان في المرحلة العثمانية، وضد الفرنسيين في الثورة التحريرية، لذلك أعتبر ربط الهوية بنوميديا قفزة في المجهول، وتأسيسا لا يستند لأي دليل.

في هذا السياق أشير إلى ضرورة تبني فكرة التركيب الهوياتي؛ الذي يستحضر التاريخ ويؤمن بالتغير وتجدد الخصوصيات، مذكرا بإرادة الشعوب وحريتها في إعادة تعريف نفسها عبر المنظومات القيمية التي تتبناها، لأنها ليست إنسان الكهف الهارب بهواجسه من الزمن، ونحن الآن إنما نمثل ذلك الامتداد للإنسان الوسيطي الذي تبنى الإسلام وأنتج معرفته بالعربية و لم يجد أي حرب على عاداته وتقاليده المتوارثة، فاستمر في التعبير من خلال أشكال مختلفة منها تعود دون شك للفترة القديمة، ونحن لا نشبه لا الإنسان الفينيقي ولا النوميدي ولا الروماني، وعندما ننظر في أنفسنا في مرآة الروح نحس أننا أقرب للحماديين والزيانيينن من ماسينيسا أو سيفاكس.

رابعا: عندما نستحضر ثوابت الهوية متمثلة في الأرض والشعب والتاريخ ينبغي أن نلاحظ التحولات التي حدثت داخلها، فالشعوب ليست موادا متكلّسة تصنع لها شخصيات في فترة محددة ثم تجمد عليها، بل إنها حركية متواصلة تعبر بحريتها عن انتمائها من خلال تفاعلها مع التاريخ وما تستدخله من مكونات ثقافية تتوافق بتعبير شبنغلر مع روحها، ولذلك أعيد أننا لا نملك أي علاقة بالإنسان النوميدي ولا نستحضره إلا ما كان عملية استنبات لذلك الاستحضار من خلال الثقافة الموجهة وآليات الإحياء التي يشتغل عليها التيار البربري اليوم، فهو إنما يعيد تشكيل هوية وليس استرجاعها، لأنه يرى أن الأجداد ليس من حقهم التفاعل مع التحولات التاريخية العميقة بل الجمود

على لحظة أسطورية يتخيلها، بل ربما اعتبرهم خونة لهويتهم لذلك يسهل عليه إطلاق لفظ: المستعربون على من تبنى اللسان العربي بطريقة قدحية، مع أن تغير الألسنة مسألة قابلة للتفسير لمن يفهم حركة التاريخ والتحولات السوسيوثقافية التي تنخرط فيها الشعوب بمؤثرات مختلفة.

خامسا: ربط التصور الديني للهوية بالمرحلة الوسيطية قضية واضحة تماما، لأن ذلك السياق إنما يعبر عن ثقافة العصر وليس استثناء منها، ولا يمكن أبدا النظر بعقل الحاضر – بهواجسه القومية والعرقية وأساطيره الهوياتية– إلى الماضي والحكم عليه، فالتشكل الهوياتي على أساس ديني والذي أنضجه الشعور الدائم بالخطر النصراني باعتباره الآخر المهدد لكيان الأمة المسلمة إنما يعبر حقيقة عن طبيعة نظر المسلم في المغرب الأوسط يومئذ لنفسه، وأنا متأكد أن الاعتبار الديني لم يكن فقط وسيطيا؛ بل استمر بعد ذلك، وهو ما جعل شعوبا مختلفة تندرج ضمن الخلافة العثمانية (ومكوناتها ليست فقط تركية كما هو معلوم)، بينما ترفض الاستعمار الاسباني والبرتغالي والفرنسي، وهو ذات المنطلق الذي عبر به الأمير عبد القادر عندما وصف العدو الفرنسي بلفظ : **الرومي**، فهذا لا يتعجب منه، ولا نطلب من شعوبنا ضرورة الانصهار في مسار التاريخ الأوروبي وما تم تشكيله من تعاريف جديدة للهوية ذات بعد قومي كان قد أنتج الحربين العالميتين الأولى والثانية، ويخشى أن يهدم أوطاننا بسبب شوفينية التيارات البربرية المتنازعة مع نفسها ومع غيرها.

ثم إن التاريخ الوسيط الإسلامي هو تاريخ أجدادنا الذين احتضنوا الإسلام وتبنوه وحكموا به ودافعوا عليه وحاربوا تحت رايته، وتوسعوا في حروبهم انطلاقا من شعورهم بضرورة مدّ دار الإسلام إلى حيث يستطيعون، والغريب أن ينسى هؤلاء ميراث الرستميين والزيريين والحماديين والموحدين والمرينيين والحفصيين والزيانيين ويختزلوا العصر الوسيط في لحظات شكلت أزمة بين العرب والبربر بطريقة انتقائية يسهل توظيفها، بينما هم يقطعون مع تاريخ حافل بالإنجازات بحثا عن تاريخ بديل لنوميديا تحت وصاية الرومان وثقافتهم.

سادسا: يبدو لي أحيانا أن هذا التيار يملك مشكلة مع اسم: الجزائر، ويقدمه كأحد مخلفات المرحلة الاستعمارية، ويرنو لاسم بديل هو نوميديا أسوة بليبيا!! لأنه يتصوره الاسم الهوياتي الوحيد، كأن تاريخ البلد تجمّد في العصور القديمة التي كنا فيها من الشعوب المتخلفة التي يصفى الكبار حساباتهم على أرضهم وبدماء أبنائهم المهدورة بين جيوش مرتزقة ومأجورة، والغريب أنه قليلا ما تستحضر الشخصيات المقاومة، بينما يتم التركيز على القيادات والنخب المترومنة، أما القيادات "المقاومة" فيحتفظ هذا التيار بها لمرحلة مقاومة العرب الفاتحين، ليعمل على تحويل كسيلة والكاهنة لرموز وأبطال، ضاربا صمتا مطبقا عن أن كسيلة ما كان ليهزم لولا أن البربر اعتبروه امتدادا للعصر البيزنطي الظالم وتحالفوا مع المسلمين ضده، وأن الكاهنة التي حاربت حسان بن النعمان هي ذاتها التي فهمت المستقبل وأرسلت أبناءها له واعية أن مستقبل قومها مع هذا الدين، فالفتح الإسلامي إنما نجح لأن البربر قبلوه

وتبنوه، وكل خطاب غير هذا هو وصم لأجدادنا ببيع الارض والتفريط فيها، وتدل فاعليتهم لاحقا في تأسيس الدول المسلمة والإبداع في الحضارة العربية الإسلامية على هذا الطرح، أما الانتقاء المؤدلج الموجه فيكشف بجلاء عملية توظيف للتاريخ وخاصة مع جيل لم يستوعب بطريقة عميقة بعد خطورة هذا الخطاب على وحدته الوطنية والمجتمعية.

وحول اسم الجزائر/الجزاير يمكن العودة إلى وثائق المرحلة العثمانية لإبراز تطور مدلول التسمية من المدينة إلى الايالة؛ شاملة بايلك الشرق وبايلك الغرب وبايلك التيطري ودار السلطان، ولذلك يمكن القول أن العثمانيين هم من أسس لتمديد دلالة الاسم قبل الفرنسيين الذين مدّوه للمناطق الجنوبية، وهذا لم يكن في إطار تشكيل اسم هوياتي بقدر ما هو صراع على التوسع والنفوذ حتى بين القادة الاستعماريين الفرنسيين ذاتهم، والأسماء تتغير دلالاتها وحمولتها بتغير الزمان، فمنذ العهد العثماني صار الاسم علامة على دار الجهاد المحروسة المرابطة ضد النصارى، وهو ما يكشف تصورا هوياتيا ببعد ديني، يجعل من الاسم دلالة مواطنة وانتماء، وليس مجرد سحب اسم مدينة على شعب كامل كما تصوره البعض.

سابعا: في سياق تاريخنا نعلم أن لفظ عربي لم يكن يحيل إلى الدلالات العرقية بل الثقافية، وهو يحمل من بين دلالاته الراسخة في المخيال الجمعي معنى الوطني والمحلي لتمييزه عن الأجنبي والدخيل الغريب، وهذا ما لا يزال موجودا في الكثير من الألفاظ المتداولة وتوصيفات بعض الأشياء؛ مثل الألبسة (سروال عرب)، والطريق (طريق عرب) وغيرها، لذلك ينبغي الحفر في المدلول الذي يراد اليوم اعتباره سلالاتيا، ويتحرج منه بعضهم كأنه خيانة أو كذب وانتساب للعرب، فسلالاتنا الجينية شيء لا علاقة له بانتمائنا العربي الثقافي، وقد يوجد بيننا من ينتمي جينيا للعنصر العربي وهو من أشد خصوم العربية وثقافتها.

ثامنا: في الوقت الذي عمل الاستعمار على تحويل الجزائريين لمجرد جماعة دينية (مسلمون) نازعا عنهم صفة المواطنة التي منحها لليهود كما سبق، فلم يكن ذلك تقزيما منه لفاعلية الدين في التشكل الهوياتي، بل سعيا لتحقيق مشروع الإبدال والاحلال، أي إبدال الثقافة الدينية بثقافة جديدة تقبل الخضوع والاندماج وإحلالها مكانها (وهو ما يشير له William Gallois كما سأشير لمقاله في الأخير)، وهو ما يتبين من الاصرار على ربط الإدماج بالتخلي عن الخصوصيات الهوياتية ولو في الأحوال الشخصية فقط، بعد أن عمل الاستعمار على "إعدام" القضاء الشرعي في القضايا المعاملاتية والجنائية والاجتماعية، ولذلك سعى منظروه بالتدريج لتشكيل منظومات تفكيكية لا تستحضر فقط الأبعاد القبلية التي استغلتها في إخضاع البلد؛ بل السعي لتأسيس الانقسام العرقي والثقافي من خلال مميزات العنصر البربري ومواصفات العنصر العربي، وترسيخ ذلك في الذاكرة الجمعية للسكان كدلالة انشطار عميق وقديم نجحت في إثبات فكرة الشعبين المختلفين، لذلك لم يكن لالتفات بعض الكتاب الاستعماريين للفظ: البربر وفاء أو

تكفيرا عن ذنب، بقدر ما كان إيذانا بغرس فكرة البربري الأصيل والعربي الغازي التي لا نزال نعاني منها، وهذه القراءة في مرامي الأدبيات الكولونيالية تنطلق من أن كثيرا مما ينظر إليه على أنه علمي لم يكن سوى أداة سياسية للإخضاع، فاليسار الذي كثيرا ما يدافع عن حقوق الشعوب المستعمرة لم يكن يستهدف الدفاع عنها لأجل حقوقها، بل لتخليص الاستعمار من أخطائه ليتمكن من الاستمرار، والتمعن في ما أشرت إليه يبين أن هذه الهوية البديلة كانت مشروعا استعماريا لم نتخلص منه بعد، بل يتم السعي لتحويله لمشروع "إنتاج" شعب جديد يقطع مع المرحلة الاسلامية ليعود لزمن الحروب البونية، وهي رجعية غريبة عجيبة.

تاسعا: أعتقد أننا دائما ينبغي أن نحذر من تبني التعاريف الجاهزة، ومنها تعاريف الهوية التي تصورها أحادية مميزة، ومع أن هذا التعريف يفتقد لمواصفات التعريف المنطقي، فإنه ليس سوى تسرع في محاولة إسقاط التاريخ الأوروبي على الجزائر، وهل حقا تتميز فرنسا أو اسبانيا أو بريطانيا عن غيرها!!! ألا نعلم اليوم أن داخل كل دولة من هذه الدول التي تقدم كأمثلة على الدولة القومية لها أقليات تتمتع بخصوصياتها، وأن فرنسا ذاتها ليست سوى غلبة لمكون على غيره ضمن المجال الذي يمثل جغرافيتها، ولا زال الغرب يوظف هذا الخطاب لتفكيك الدول بينما يتصدى له عندما يهدد دوله، وما قصة الكتلان مقارنة بتفكيك يوغوسلافيا عنا ببعيد، وما استغلال العنصر الكردي في مشروع التفكيك للعالم العربي غائب عن المتابعين.

ومن هنا، فإن نفي البعد العربي عن الهوية الجزائرية ينطلق من تصور أحادي للهوية يريد أن يخص الجزائر بحدودها، وهو ما يعيد استدعاء مقاربة الهوية النوميدية المتوهمة، هوية لا يشعر بها لا الفرد ولا الجماعة، ويراد إلباسها له، مع أن هذا لا يمثل خصوصية إلا بعملية تطويع للجغرافيا الجزائرية لتتوافق معها، ونخشى بهذا أن يرفض سكان الصحراء الجزائرية ذلك بحثا عن هوية طاسيلية!! ضاربة في القدم، لها صورها وفنونها وعاداتها!! ثم إن هذه التصورات تقسم من حيث لا تشعر الانتماء القديم للشمال افريقيين بحسب الصراعات السياسية لملوكهم ومناوراتهم مع قرطاج وروما، فأي هوية مميزة هذه التي صنعتها مكائد سيبيون وحنبعل وماسينيسا وسيفاكس، وكأن قدر تاريخنا أن نبقى أسيري تحكم السلط السياسية في مصائرنا قديما وحديثا.

عاشرا: لقد عملت السلطات الاستعمارية رغم علمانيتها المتشددة كمنتوج لثورة 1789 التي مارست أبشع صور الارهاب العلماني، على الاستثمار في التنصير وتوظيف المبشرين في مشروعها الاخضاعي، وهذا الفعل تعبير من داخل السياسة الاستعمارية على وعي عميق بالبعد الهوياتي الحقيقي للجزائريين، لذلك تمت محاربة التعليم الديني الاسلامي والوصاية على ما بقي منه، بينما عملت الدراسات الاستعمارية على إنتاج منظومة تاريخية زاخرة حول التاريخ القديم للجزائر، وأنجزت حوله دراسات كثيفة مركزة على الفترة الرومانية لبناء شرعيتها عليها، لكنها أيضا اهتمت بالدولة النوميدية، فهل كان الاستعمار يساعدنا على إحياء هويتنا لنقاومه بها؟!! هل كان يعمل على إعطائنا

المرجعية الفكرية لنقف في وجه مشروعه!! إن إحياء التاريخ القديم وتشكيل رمزية شخصيات منه في مقدمتهم ماسينيسا وأوغسطين ويوبا الثاني كان يتوافق مع الهوية البديلة المراد غرسها لمحاربة الهوية الفاعلة التي كانت تجابه على مستوى التضييق القانوني التعسفي، والممارسات الاستعمارية القمعية ضد تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي، ولا يمكن فهم الظاهرة الاستعمارية إلا بذلك.

أحد عشر: يعمل خطاب الهوية البربرية في إحدى صور الانتقائية التاريخية على نفي أي دور للخطاب الإصلاحي في تكريس التوجه الاستقلالي داخل الحركة الوطنية، وهذا من خلال تصور غريب حول علمنة كل القيادات الوطنية الاستقلالية، وموقع الهوية الدينية في الخطاب الإصلاحي والتوجه الاستقلالي أعتقد أنه مما ينبغي مراجعته، وهذه المسائل التاريخية قد تمت أدجلتها وتصفية حسابات الحاضر بأساليب قراءة الماضي، والذي ينبغي الاتفاق عليه أن النضال من أجل حفظ الهوية الدينية الجزائر وإفشال مشروع الإدماج كان أحد أهم اللبنات التي سمحت بنجاح الخط الثوري لما يمثله الدين من محفز كبير على مقاومة الاستعمار الكافر، و المقابلة بين مسلم وكافر هي التي عارض بها الشيخ عبد الحميد بن باديس مشروع التجنيس، ولولا هذه المقاربة لما نجحت مقاومته وامتدت إلى خارج الوطن، وما تشهد به التقارير الاستعمارية في دراسة الخلفية التي يحملها المجندون في جيش التحرير الوطني هو الدور المركزي لخطاب الهوية الدينية الذي حملته جمعية العلماء في تشكيل النفسية الرافضة الاستعمار والمستعدة للتضحية والبذل لأجل مجابهته، وهذه الوثائق باعتبارها صادرة عن جهات رسمية مقدمة على الخطابات التاريخية الموجهة، والتي يتم توظيفها حسب سياقات الكتابة.

اثنا عشر: في محاولة أنصار الهوية البربرية لمسح أي دور للهوية الدينية كمرتكز انتمائي ونضالي يستسهلون القول أن قيادة الحركة الوطنية لم تكن ترى في الإسلام سوى أداة لمقارعة المستعمر: "لا غير"، وكلمة لا غير أراها خطيرة جدا، فهي تحول القيادات لمجرد وصوليين براغماتيين لا هدف لهم في إعادة استرجاع الهوية الدينية للبلد بعد التجريف الاستعماري وقوانين التضييق على التعليم الديني، وأن جميعهم دون استثناء يهدف في مراميه الحقيقية إلى إعادة تشكيل مجتمع جديد مقطوع الصلة بحضارته، وأنهم –جميعا– إنما ينتمون لثقافة أخرى غير الثقافة الاسلامية!!! مع أن بيان أول نوفمبر ينص بصراحة على أن مشروع التحرر يستهدف بناء دولة في إطار المبادئ الاسلامية، وربما يعتقدون هذا اللفظ ذاته ليس سوءِ أحد تمظهرات البراغماتية السياسية، مع أن الهواجس التي عاشها المناضلون يومها ليست هواجس اليوم، ولا ننسى أن التوجهات البربرية مثلت إحدى الأخطار التي تصدى لها المناضلون باعتبارها عملا تفكيكيا ومؤامرة استعمارية، ثم إن هذا الخوف من الإسلام إنما يعبر عن الوقوع تحت آلة الدعاية الإعلامية الموجهة التي تقدمه اليوم باعتباره خطاب عقيدة التكفير واستباحة دماء المخالفين!!!! فهو خطاب ينطلق من وقائع معاصرة يقرأ بها النصف الأول من القرن العشرين بالجزائر، لأن الجزائريين أيضا لم يكونوا يتوقعون أنه باسم الدولة الوطنية يتم الانقلاب على إرادة الشعب وحشر الجزائريين في محتشدات رقان وعين مقل، ويفنى شبابهم في السجون

نتيجة المحاكم الخاصة، وإذا برأنا النضال الوطني من هذه الجرائم فينبغي تنزيه النضال الإسلامي عن الفهوم المنحرفة المنتجة لسلوكات إجرامية، وهي قضية تحتاج نفسا بحثيا وليس خطابا انتقاميا ولا سلوكا إنكاريا.

والذي أراه أن مستوى وعي الحركة الوطنية بأهمية الإحياء الديني كان متباينا، بحسب الخلفيات المختلفة، ولا يمكن القول أن الدين كان خطاب دعاية "لا غير"، وهي التهمة التي ألصقت بالحركات الاسلامية لتشويهها بينما قبل البعض أن يصف بها الحركة الوطنية لأجل الدفاع عنها ونفي تهمة الايمان بالهوية الدينية عنها!! والغريب في الأمر أن بعضهم يقدم قيادات الحركة الوطنية باعتبارها ممثلة في الحداثيين والبربريين والشيوعيين!! وليس لي من تعليق على هذا التوصيف سوى القول أن كتابة تاريخ على مقاس الحاضر لأجل استثماره سياسويا لا يمكنها التغطية على التاريخ كما حدث، على أن الشيوعيين كانوا مع الادماج، والحداثيين مع الادماج، والبربريين تصدى لهم التيار الاستقلالي، وفكرة المواطنة المستندة إلى الهوية العربية الإسلامية هي التي صنعت التيار الاستقلالي ومنحت له الشهداء الذين حرروا البلد تحت راية الجهاد وصفة المجاهد، ولم يدر بخلدهم أن يزعم أحد أنهم كانوا وقودا لمشروع يتنكر لدور الدين في بناء الأمة الجزائرية في وطنها المستقل، ولأنني لا أقبل التعميمات المطلقة المنافية للتاريخ وحوادثه، فهذا الرد إنما يستحضر التوجهات العامة ودائما هناك استثناء يستحضر ضمن كل تيار.

ثلاثة عشر: من الغريب جدا الحديث عن هوية بربرية وفي نفس الوقت الاعتراف أنها غير مفهومة جيدا عند غالبية الشعب!! وأنه ينبغي أن يتم تعليمه ليعرف هويته!! فكيف للهوية بالتعاريف الأحادية المركزية أن تكون غير مفهومة، فهل يمكن تصور شعب يقال له هويتك بربرية لكنك لا تفهمها جيدا وسنتكلف بتعليمك لتصبح فاهما لها، أما ما تتصوره حاليا من هويتك فأنت ضحية خطاب عروبي شوفيني !! أعتقد أن هذا أكبر دليل على أن الهوية البربرية المفردة وهم، والعمق النوميدي كتمثل يتم الانطلاق منه مجرد محاولة لأسطرة تصورات قبل زرعها في عقول الناس وهكذا تقوم كل المشاريع السياسية في العالم.

أربعة عشر: ينبغي التفريق بين المفرنسين لغة وبين الذين تخلوا عن هويتهم لصالح هوية جديدة، فاستبدلوا الإسلام بالعلمانية المتطرفة، وحاولوا تكريس الفرنسية بديلا عن العربية، وهؤلاء الذين كثيرا ما انتقدهم الابراهيمي، فاتهمه بعضهم بالعروبي المتطرف، نازعين عنه صفحة الشيخ العالم لترسيخ صورة بديلة تضرب خطابه القوي ضد هؤلاء، بينما الإبراهيمي العالم الديني والمفكر الرسالي هو ذاته المفوه بعربيته الفصيحة المتينة، وهو ذاته يفرق بين أن تكون متحدثا بالفرنسية مدافعا عن أمتك، وبين أن تكون مفرنسا لغة وروحا، ولذلك لا يستهدف خطاب الهوية العربية الإسلامية استعداء الناس لأجل لغتهم، لأن تنوع الألسن سنة ربانية في الخلق، لكنه يستنكر فرنسة الروح التي تمثل امتدادات لتوجهات الادماج المنبهرة بفرنسا والراغبة في مد ثقافتها نحو الجزائر والذوبان في الفلك الحضاري الغربي باعتباره علامة التطور الذي لا يمكن تحقيقه إلا بتقمص كامل ومطلق.

خمسة عشر: في حديث بعض أنصار الأطروحة البربرية عن تأثر أحمد بن بلة بخطاب القومية العربية، فقد تم تقديمه كأنه تهمة، مع أن قراءة الوقائع في سياقها ينفي هذا التوصيف، ولا يمكن لأجل الخلاف مع بن بلة فكريا أو هوياتيا أن ننكر الدور الكبير الذي يمثله في التوجه نحو الحل الثوري وترسيخه وإطلاق شرارته، ثم إن الثورة تلقت دعما من الدول العربية وهي تحارب فرنسا فهل يراد منها أن تعادي من مد لها يد المساعدة خاصة مع ما كان من التداخل بين الخطاب القومي والتوجهات اليسارية الاستقلالية المدعومة من السوفيات، و لم يكن متوقعا أن يتحدث بن بلة عن هوية بربرية لا يزال سنة 2021 يقال عنها أن الشعب لا يفهمها، وهذا يذكرنا بمقولة الشعب لم يحسن الاختيار!!

وأخيرا: في سياق الصراع الهوياتي يتساهل أنصار النزعة البربرية في اختزال المشاهد السياسية المعقدة، ويصرحون بمسؤولية الدعاة إلى الهوية العربية الإسلامية عن المأساة الوطنية!! واعتبارهم ثورة مضادة على مشروع الدولة الوطنية نحو الدولة الدينية الطائفية!! بينما هذا الخطاب الذي حملته جمعية القيم وأطياف الحركة الاسلامية هو استكمال للاستقلال الوطني، ومعارضته بالنسبة لي هو امتداد لمشاريع الادماج، وأي فائدة في الجغرافيا إذا فقدت هويتي وتبنيت هوية المستعمر: فرنسة، وعلمنة، وأفقا غربيا في التفكير، وهذا الخطاب هو الذي أعطى "المبرر الفكري" للانقلاب المشؤوم المؤذن ببداية المأساة، وليس هذا صكا على بياض لتبرئة أي طرف، بل تنبيها لمن مثّل دور الصاعق المفجر، بينما دور الدولة كان في احتواء كل خطاب متطرف وليس في تهيئة التربة التي ينمو فيها عبر القرارات الراضخة لتيارات اقصائية واستئصالية.

إن هذه النقاط إنما تستهدف خطاب الهوية البربرية الذي يحاول أن يعرف بها هوية الجزائر، متنكرا للتراكمات التي جعلت العنصر البربري أحد الشعوب المسلمة والمتقبلة للغة العربية، والمبدعة بها في شتى العلوم، فأقام دولا وشيد حضارة وأنجز عمرانا ضمن محطات تاريخه الحافل داخل دوائر انتماء متعددة ومتداخلة، و لم يحدث أن شعر البربر أن لهم هوية خاصة تستدعي استعداء البعد الاسلامي، أو مخاصمة اللغة العربية، أو تحييد الدين عن شؤون الحياة، أو أن العمق المحلي يمكنه أن يكون بديلا لما تبناه أجداده بإرادتهم الحرة، واستدخلوه في ثقافتهم وعرفوا به انتمائهم.

ملحقات للفائدة:

- في هذا المقال للمؤرخ الجزائري الكبير ناصر الدين سعيدوني متابعة لدور الاستعمار في بناء الأطروحة البربرية، والذي نشره في مجلة الفكر الكويتية، وهو موجود على الرابط التالي:

https://archive.org/details/algerian_201810

- في هذا المقال تجدون تشريحا دقيقا للمشروع الاستعماري في استهداف الهوية الدينية لتشكيل هوية جديدة وإنتاج أمة جزائرية مختلفة عبر ضرب البعد الديني.

William Gallois (2017): The destruction of the Islamic state of being, its replacement in the being of the state: Algeria 1830–1847. Settler Colonial Studies, DOI: 10.1080/2201473X.2016.1273864

https://drive.google.com/file/d/1gFsigMlgGEjNF0OKrwf4rNbrc59ejJYe/view?usp=sharing

- هذا التقرير الاستعماري من الكتاب الأخير لأستاذنا علاوة عمارة حول الشهيدين بوضرسة، يبين في الأسطر الأربعة الأخيرة تصور الإدارة الاستعمارية لطبيعة التأطير الذي يقف خلف المجاهدين الذين يحاربونهم.

في دراسة أعدها مركز الاتصالات والاستغلال (CLE) التابع لهيئة قيادة الأركان المشتركة لقوات الاحتلال بالشرق الجزائري وتخص تطور الثورة التحريرية في الفترة الممتدة ما بين 1954 و1957. نجد اعتبار 20 أوت 1955 تحولا مفصليا لأن الثورة انتشرت وأخذت طابعا شعبيا بداية من هذا التاريخ لتشمل كل الشمال القسنطيني في نوفمبر 1955. وهنا يعتبر التقرير بأن الثورة أطرتها سياسيا مجموعات تنحدر من الحزب الاستقلالي الذي أسسه مصالي الحاج. لكن على المستوى النفسي والديني تهيئت بفضل مجهودات العلماء وعلى الصعيد العسكري لاحظت تدخل «مصالح خارجية من الشرق الأوسط».[2]

ANOM, 93/177.

(1) - *Afrique du Nord, La journée tragique du 20 août 1955. FR ANOM, 93/177.*

(2) - *Centre de Liaision et d'exploitation, La rebéllion (1954-1957). FR ANOM, 93/222.*

358

بقلم حسين بوبيدي

10 جمادى الآخرة 1442 /2021-01-23

https://www.facebook.com/hocine.boubidi.7

تنسيق وتصفيف قناة المؤرخ الجزائري www.youtube.com / the Algerian historian